باطل الأباطيل

بقلم : محمد حسن عبد الله

للمرة العشرين كتبت التلميذات فى كراساتهن، « قابلت الطفل وهو باكى » وللمرة العشرين أيضا ، وضعت نوال خطأ أحمر تحت كلمة (باكى) وشطبت الياء ، ووضعت كسرتين تحت الكاف !! وأطلقت نفسا حبيسا مجهدا ، يمتزج فيه الضيق من اللغة ، التى تحذف وتضيف دون منطق معقول ، بالضيق من الطالبات اللاتى تكرر منهن هذا الخطأ بعينه ، وما تظنه الا سيتكرر فيما بقى من الكراسات .. والتل لم يختل بعد ، على الرغم من أنها أخذت منه حتى تصلبت أصابعها على القلم ، ورقصت الكلمات أمام عينيها . وعضت شفتها بشىء من الندم ، وهى تنحو على نفسها باللوم، فلو أنها اختارت موضوعا آخر، لما تحتم أن تذكر التلميذات هذه الكلمة اللعينة ، ويتكرر منهن الخطأ فيها !! حقا .. يجب أن تتمتع المدرسة بنوع من الحدس قوى ، فتتخيل ما ستكتب تلميذاتها فى الموضوع قبل أن تعلنه ذكاء الذكيات ، وغباء الغبيات ،وسخافة عقولهن..ويجب أن تضع فى اعتبارها بعض التراكيب اللغوية التىمن المحتمل أن تعترض طريق التلميذات أثناء التفكير !

« ولكن .. هل كان أمامى غير هذا الموضوع ؟ حضرة المفتش .. العجوز الطويل الاعجف .. مثل سيمافور غمرة ، مصمم على أن تكون موضوعات التعبير مستقاة .. هكذا .. مستقاة ! من البيئة . وبعد غد .. العيد ، والموضوع : قصة يتيم يوم العيد ؟! مبسوط يا حضرة المفتش ؟! موضوع فسيح يرمح فيه الخيال ، وتنفس فيه المراهقات عن أحزانهن .. بيئة ايه يا حضرةالزناتى خليفة؟! أين هى البيئة؟! اننا هنا فى مساكن المدرسات لا نرى الا القمر فى السماء، « وعم أبو جاسم » حارس البناية على الارض ، ويمر اليوم بعد اليوم ، والاسبوع بعد الاسبوع . ولا تمتد أعيننا ولا آذاننا الى أكثر ما امتدت اليه حين هبطنا من الطائرة ! »

وعادت نوال تنظر الى تل الكراسات أمامها ، وهى تقيسه بنظراتها ، وتقسمه على أيام عطلة العيد ، وتحلم بأن تستقبل أيام المدرسة ، بعد انتهاء العطلة ، وليس عندهاشغل بايت !! وحاولت أن تجعل نصيب يوم العيد من الكراسات أقل من أنصبة الأيام الاخرى ، حتى تشعر بشىء من الفراغ .. بأن هذا اليوم غير كل

الايام .. لكن : هل هو هنا غير كل الايام ؟! وخفق قلبها لأيامها السالفة في وطنها ، قد مر عليها خمسة اشهر كانها دهر طويل ، انها لا تكاد تصدق انها سترى شارعهم مرة أخرى .. كم تخشى عليه أن يضيع من ذاكرتها ، لذلك تفكر فيه كل يوم ، وتذكره عند الغروب خاصة ، وقد اكتسحته الشمس بأشعتها المصفاة ، وانتشر فيه الصبيان والاطفال يلعبون ويمرحون كانهم سرب من العصافير .. هؤلاء يتقاذفون الكرة الشراب ، التي أصابتها مرارا في كتفها عند عودتها من الكلية في ذلك الوقت ، وأولئك يخططون أرض الشارع بالاحجار ، ويتقاذفون بأرجلهم الزاحفة كسرة من البلاط !! لقد كان هذا المنظر النابض يختفي يوم العيد ، لم تكن تدري هل يذهب سرب العصافير الى أماكن أخرى يلهو بها يوم العيد ، أم انها هي .. نوال ، التي كانت تشغل عن التسلي بهم ؟! لكنها تذكر جيدا ، يوم آخر عيد قضته في الوطن ، تذكره لحظة لحظة . لقد جاء حسني ابن خالتها ليهنئهم بالعيد ، في الظاهر ، وليجلس بقربها ساعات في واقع الامر . جاء تسبقه ضجته المرحة ، وهو يهنيء اخواتها الصغيرات متمنيا لهن أمنيات احمر وجهها هي عند سماعها، حتى اذا وضعت يديها بين يديه ، سكنت ضجته ، وانعقد لسانه ، كانما انقطع التيار الكهربي فجاة عن مذياع في مقهى . لكن ابتسامة واسعة ظلت تكسو وجهه ، ولم يقل لها أكثر من الكلمة التقليدية المحفوظة «كل سنة وانت طيبة يانوال » .

وحدقت نوال في أذرع المروحة المبسوطة في سماء الغرفة ، والنسمة المتسللة من النافذة الزجاجية المفتوحة تحركها في بطء رتيب ، جاءها صوت « ابو جاسم » عند باب المساكن ينادي كلبه ، ويعبث باصابعه في مفتاح مذياعه الترانزستور ، فتختلط الأصوات والأنغام . ثم أطبق السكون مرة أخرى ، والتقت عيناها بالظلام عبر النافذة ، فعاد صوت حسني ، الهادي الخجول في تلك اللحظة ، يتردد صداه : كل سنة وانت طيبة يانوال . وتمثلت لها أمها ، وهي تدخل عليهما عائدة من المطبخ ، تفوح من ثيابها رائحة الشواء ، وقد تهللت لرؤية حسني وأقبلت عليه ، فترك يد نوال ، والتفت الى خالته مهنئا، فبادرته وهي تقبله في خده : خذ بنت خالتك ، لتهنيء أختي بالعيد . كان هذا ايذانا لنوال بأن تخرج مع حسني منفردين لأول مرة . ولقد خرج معها ، وسارا في الشارع يلفهما الصمت .. كانت الشمس المصفاة تكتسحه بأشعتها، ولم يكن سرب العصافير موجودا ، ولقد تمنت أن يوجدوا ، وأن تصيبها الكرة في جسمها ، حتى تجد هي ، أو يجد حسني ما يقوله ، لكنها ـ ببراعة ـ استفادت من عدم وجودهم ، فقالت ، وصوتها لا يطاوعها : ياسلام !! الشارع من غير أطفال ، هادىء ونظيف ، صالح لأداء مهمته . هنا استرد حسني شيطنته ، وقال بسرعة لا يكاد يتبين معها مرمى كلامه : كاننا لن نضيف الى أطفال شارعنا عددا آخر !!؟ وفتحت نوال حقيبتها ، وأخرجت منديلا مسحت به طرف أنفها ، وأهدابها ، ووضع حسني يديه في جيبي سترته ، وغرقا في الصمت من جديد ، لم ينقذهما منه الا صعودهما الى الاتوبيس ، وقد أتاح

له ذلك أن يمس خصرها برفق وهو يحميها من ضغط الزحام !! لبيئة !! البيئة هناك حيث الزحام ياحضرة سيمافور غمره الرسمي ، حيث يحس القلب خفق القلب . ليس أمامي هنا الا: وحيد أبويه كان يستحم على الشاطىء وكاد يغرق لولا أن انقذه شاب قرى شكره الوالدان شكرا جما .. صوري هذا الحادث بقلمك . أو : استمعت الى قصة من المذياع وأعجبتك فحصيها بقلمك ، أو على الاكثر : الأم مدرسة اذا أعددتها !! أم يريد حضرة الزناتي خليفة أن اعطى التلميذات مواضيع من بيئة مسكن المدرسات ؟! ان الامر على هذه الصورة يبدو أكثر معقولية ، فهي البيئة الوحيدة التي امتزج بها .. وأدركها ما أروع ذلك حقا : صوري بقلمك معركة كلامية بين سعاد مدرسة التربية الفنية ، وفاطمة مدرسة الحساب، سببها ضياع ملحق مجلة حواء!! تحدثي عن العقد النفسية التي تتمتع بها الاستاذه سلوى نتيجة لوجود ثلاثة أمتار من الجوبير الابيض في حقيبة السفر ، ستصنعها فستان زفاف عقب عودتها . وصمتت أفكارها لحظة ، ثم عادت وقد سرت قشعريرة خفيفة في جسمها «صوري قصة حب مع ايقاف التنفيذ» !! نعم .. هذا أجود ، انه من حياة مدرسة المادة ذاتها ، كيف أتطفل على مدرسات المواد الاخرى ؟!

وانصفق باب بعيد ، في آخر الممر الممتد أمام الغرف المتجاورة ، فكأنما انصفق على صفحة من الافكار ، وقلب صفحه جديدة ، فتنبهت نوال للقلم الاحمر مايزال في يدها ، واحدى الكراسات بين يديها ، وعن يمينها تل أشبعته شطبا وتصويبا ، وأشبعها ملا وارهاقا ، وتل آخر ماتحسبه سينتهي الا وقد أجهز على ما فيها من القدرة .. فعادت تطلق نفسا حبيسا وهي تزفر : لا فائدة .. لا مفر !! وجرت عيناها على عنوان الموضوع ، فعرفت فيه خط تلميذتها « غنيمة » .. اليمامة الصحراوية الوديعة ، فاحست بارتياح شديد وهي تذكر وجه «غنيمة» الاسمر المستطيل قليلا ، وعينيها السوداوين الواسعتين ، وشعرها الفاحم الذي جدلته في ضفيرة واحدة ، ممتدة الى أردافها اللطيفة ، الحديثة الوجود .. كم تتمنى لنفسها مثل هذا الشعر ، ومثل هاتين العينين . كم قرأت من الشعر العربي عن عيون المها ، لكنها كانت تعتبر هذا الشعر أيام الكلية ضمن المقرر ، يحفظ، ثم ينسى .. وظلت تجهل عيون المها الى أن رأت غنيمة ، فالتمست العذر للشعراء ، وحاولت أن تذكر شيئا من شعرهم . وعاد الى مخيلتها وجه تلميذتها ، وتصورتها غزالا صغيرا نافرا، يتواثب من حولها ، وله هاتان العينان . وذكرت اليوم الاول الذي ارتفعت فيه غنيمة من تلميذة عادية ، الى صديقة أثيرة عندها . جاءتها في غرفة المدرسات ، وكانت وحيدة ، وقالت لها : انني أحب الانفراد بنفسي ، وأبكي ، وأخشى من تأثير ذلك على المذاكرة ، وأنا أحبك ، وأحب أن تأخذي بيدي .

كانت هذه أول كلمة توجه اليها كانسانة ، وليس كمدرسة ، منذ وصلت هذه المدرسة ، فتطلعت الى وجه تلميذتها ، فرأت عيون المها ، ورقة الغزال ، فأمسكت بيدها في رفق وتحبب وهي تقول : لا تساعدي نفسك على

الوحـــدة ، اختلطى بأسرتك أكثـر ، وذاكرى بصوت مرتفع .. أنا وقعت فى نفس المشكل عنـدما كنت فى سنك ، كنت أبكى كل يوم وأنا أتصيد أغنيات فريد الاطرش من أية اذاعة .

قالت المها : وأنا .. بس مع حليم !!

قالت نوال : لا فـــرق .. كلهـم يبـــكون .. فى الاغانى .. لكنهم فى الواقع يملكون قلوبا من حديد .. لى ابن خاله .. خطبنى بعد ما تخرجت .. أنا جئت هنـــا من أجله .. من أجل تكوين بيت له مستوى .. هنا أشياء ليست عندنا .. أول أسبوع .. كل يوم رســـالة .. وثانى اســـبوع .. رسالتين .. وبعد أسبوعين .. رسالة ، ومر شهر الآن لا أعرف عنه شـــيئا .. وطبعا .. الشارع مزروع بالألغام !!

قالت المها فزعة ، وقد زادت عيناها الجميلتان اتساعا : ألغام !!؟

ـ نعم .. ألغام آدمية .. والبعيد عن العين .. بعيد عن القلب !!

واكتشفت نوال ، انها ثرثرت مـــع تلميذتها أكثر مما تسمح به ظروفها . فتوقفت فجأة ، وتنهدت ، دون أن ترضى التطلع الواضح على قسمات «غنيمة» ، لكنها منذ ذلك اليوم ، صارت صديقة لها .. انها لا تمارس حق الشكوى الا معها ، فلو انها شكت حسنى الى زميلة من المدرسات لتحول الامر الى اشـــاعة ومـذلة . لكن غنيمة .. بيئة ثانية ، بيئة مختلفة . وجذب نظرتها الشاردة شريط طويل من المصـــابيح الصفراء المضيئة ، يمتـــد مع الطريق الدائرى الذى ينتهى عند المطار .. ما كان أجمل النور الاصفر حين يكون تشكيلا بديعا مع النور الابيض ، ما كان أجمله حين رأته من شباك الطائرة وهى تحوم فوق العاصـــمة ليلة قدمت الى هنا ، وكم كانت آمالها زاهية ، واحساسها بالمغامرة يجعل للحظات حياتها مذاقا حادا لذيذا .

لكنها الآن ، والعيد على الابواب ، تراجع ميزانية الأيام الفائتة ، فتجد الخسائر فادحة .. في الارواح ، كما تقول نشرات الاخبار عادة حين تنشب حرب !! الذين هناك ينسون ، والذين هنا لا يذكرون . وعادت تتمتم : « لا فائدة .. لا مفر » .

ونقرت بكعب القلم الاحمر بضع مرات كأنها تدفع خواطرها نحو التأهب مرة أخرى للعمل ، وجرت نظرتها بين السطور ، وما لبثت أن شعرت بارتياح عميق وهي ترى غنيمة قد اجتازت لحظة الخطر بسلام ، فقد قابلت الطفل وهو باك !! ووضعت كسرتين تحت الكاف لتؤكد لصديقتها انها تذكر القاعدة ، ولم تكتبها صحيحة بالصدفة . واحست نوال بالزهو ، ووضعت تحت الكلمة علامة صح ، لتؤكد لتلميذتها أيضا انها فطنت لذكائها ، وانها قدرته . ومضت تقرأ الموضوع ، وهي تتذوق كل لفظ فيه ، وتحاول أن تجد فيه ظلا للذكاء والرقة ، يرضي رأيها في صاحبته .

وما كادت تنتهي من كراس غنيمة حتى عاودها احساس الملل والضيق ، وهي تمد يدها الى الكراسة التي بعدها ، فالقت نظرة على ساعتها النائمة بين أكوام الكراسات ، فوجدت الوقت قد تجاوز نصف الليل ، فتمطت وهي جالسة حتى اصفرت الغرفة في عينيها ودارت ، ثم صفت واستقرت ، فقامت تتأهب للنوم .

وتمددت نوال في سريرها ، لكنها قبل أن تطفيء النور ، سمعت صوتا قبل أن تطفيء النور سمعت صوتا يأتي نحو غرفتها من بعيد ، عرفت فيه صوت سلوى ، ولم تمض لحظات حتى سمعت طرقها على الباب ، فأوشكت أن تقول : ادخلي ياعقد نفسية . لكنها كظمت غيظها ، ودخلت سلوى وفي يدها بطاقة مرسوم عليها باقة من الزهر ، مشت لها نوال ، واعتدلت في سريرها وهي تمد يدها لتأخذها ، قائلة : ماما .. حبيبتي !!

قالت سلوى بشيء من الجمود . سلامة عقلك ياماما أنت .. معايدة ماما وصلتك البارح !! فانطفأت الفرحة قليلا ، لكن نظرة نزقة عبرت بعينيها لحظة .. تنبهت لها سلوى ، فعادت تقول ، وهي تبعد البطاقة عن يد نوال : كلا .. وليست من حسني !!

فكبا نور وجهها قليلا ، وهنا مدت سلوى يدها بالبطاقة وهي تقول : بريد محلي !! قالت نوال بدهشة خفيفة وهي تفتح البطاقة : بريد محلي ؟! ومن الذي سيذكرنا هنا ؟! قالت سلوى بسخرية: ريم على القاع بين البان والعلم .. التلميذة البايخة التي أفسدتها بالتدليل .. انها معي من الظهر ، وقد فكرت مرارا في تمزيقها !!

فخطفت نوال البطاقة من زميلتها ، توقيعها تحت الاسطر القليلة، وانصرفت سلوى ، وعادت نوال تقرأ البطاقة ، وهي تحس على نحو غامض بمعنى من معاني العيد يتسرب الى نفسها : « أستاذتي العزيزة .. من تلميذتك المخلصة ، تقبلي أجمل التهاني بالعيد . والسنة القادمة تكوني قد حققت كل أحلامك . غنيمة » . واعتدلت نوال قليلا ، ومدت ذراعها ، فجذبت القلم الاحمر من فوق المكتب ، ووضعت خطا تحت كلمة (تكوني) وكتبت فوقها (تكونين) ، ثم ألقت بنفسها في السرير تبحث عن النوم !!